«لقد غيرنا القوانين»

الممارسة وسوء الممارسة الانتخابية في السودان منذ العام 1953

جستن ويليس وعطا البطحاني[1]

المستخلص:

تستكشف هذه الورقة تاريخ الانتخابات عبر الاقتراع السري في السودان منذ الخمسينات من القرن العشرين، وتضع ماهية الدروس التي يمكن أن يقدمها لنا هذا التاريخ في مسيرنا نحو الانتخابات القومية المحددة وفق اتفاقية السلام الشامل بعين الاعتبار. تموضع هذه الورقة الاستعمال المتكرر للاقتراع السري في السودان ضمن السياق الأوسع لمشروع التحديث الموجه بواسطة الدولة، والذي يوفر له الاقتراع السري تشريعًا إنجازيًّا performative enactment للعلاقة بين الدولة الفعالة والمواطنين الملتزمين. وعليهِ تركز الورقة على الإجراءات الفعلية للانتخابات، بدلًا عن السياسة العليا high politics، وتحاجج أنه على الرغم من الإلحاح الرسمي على [كون] الإجراءات متسقة، فإن الممارسة في الغالب حادت عن القوانين المزعومة. وبينما كان هذا الحيود مدفوعًا بالرغبة في التلاعب السياسي في بعض الحالات، فإنه كان في أوقات أخرى ببساطة نتاجًا لشحّ الموارد؛ وهذا النوع من الحيود قد غطَّى عليه المسؤولون الذين كانوا واعينَ جيدًا بالقيمة الهائلة المتصلة بأداء الاقتراع السريّ. يبدو من الراجح أنّ الانتخابات القادمة ستواجه مشاكل وحيودًا مشابهًا عن القوانين، وأنه من غير الراجح أن تحقق هذه الانتخابات هدفها المبتغى، أي تطوير ثقافة سياسية أكثر استيعابيةً.

١ جستن ويليس: أستاذ في قسم التاريخ لدى جامعة درهام University of Durham. الدكتور عطا البطحاني: أستاذ في قسم العلوم السياسية جامعة الخرطوم. معظم البحث الذي تطلبته هذ الورقة قد أُنجِز خلال مسار مشروع عنوانه: «التعلم من التجربة: تاريخ الانتخابات في السودان منذ العام 1953». أدارت هذا المشروع مؤسسة Rift Valley ومولته وزارة التنمية الدولية [في المملكة المتحدة]، وكان الباحثون الأساسيون فيه هم كاتبا [هذه الورقة] وبيتر ودورد Peter Wood-ward من جامعة ريدنج University of Reading. وقد عمل كل من كمال مصطفى أحمد، وجيهان الطاهر، وهشام بلال، وويل بيردج Will Berridge، وزو كورماك Zoe Cormack كمساعدي باحثين. ولا ننسى بكل امتنان ذكر مساعدة ومشورة جون رايل John Ryle، وكما نذكر تعليقات المحررين والمراجعين المجهولين في [مجلة] African Affairs وتعاون دار الوثائق القومية في الخرطوم وإرشيف السودان في درهام.

"الأراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن إدارة مركز تأسيس للدراسات والنشر"

في العام 1983 أعاد استفتاء رئاسيّ في السودان الرئيس وقتها جعفر نميري لفترة رئاسية أخرى في المنصب.[١] وخلف التقارير الصحفية التي تحدثت عن الإقبال الضخم للناخبين والدعم شبه الإجماعي، كان هنالك بدلًا من ذلك حقيقة مختلفة، فكما استرجع مسؤول إداريّ سابق قائلًا:

في نفس الانتخابات كان وزير التعليم موجودًا، وكان هو المسؤول عن الإقليم الشمالي بأكمله، وكنتُ أحد المسؤولين الإداريين العاملين معه ... ناداني في أحد الأيام قائلًا: «يا محمد! بعضُ مراكز الاقتراع نسبةُ التصويت فيها أقل من 90%. نحن ... –جميع المسؤولين الإقليميين- نتنافس ... في أنه يجب أن نصل إلى 96% ... لذلك كل واحد منا يريد أن يكون [التصويت في] قطاعه أعلى من 96%!» فقلتُ له: «كيف يمكنني فعل ذلك؟ فالانتخابات انتهت.» فأخبرني أنّ القوانين قد صنعها مجلس قيادة الثورة، وأنهم قد غيروا القانون...[٢]

محمد بدوره استدعى مرؤوسيه وشرح لهم أن القوانين قد تغيرت وأنه يتوجب عليهم جمع المزيد من الأصوات. عادوا بعد ساعات وصناديقهم الانتخابية ممتلئة؛ وحين سألهم كيف تمكنوا من جمع الأصوات بهذه السرعة من مراكز الاقتراع والتي كانت على مسافة أبعد من مسيرة يوم أجابوه: «نحن أيضًا غيّرنا القوانين!»

إنّ هذه الحكاية الطريفة حول الفشل الانتخابي تثير فورًا بعض الهواجس التي تطوّف بالانتخابات المخطط لها في العام ٢٠١٠م. الانتخابات التي يُنظَر إليها كأحد أهمّ معالم اتفاقية السلام الشامل CPA، كانت هذه الانتخابات مُعدّة للمساعدة في ضمان تسوية سلمية وثابتة للنزاع في جنوب السودان. وهذا الهدف يمكن وضعه بسهولة ضمن المنطق المنتشر دوليًّا الذي ينظر إلى [الانتخاب عبر] الاقتراع السرّي بوصفه مفتاح التحول السياسي، وأنه يمتلك سلطة شبه سحرية لإنهاء النزاعات وإنشاء حكومة عادلة، وأُشِيرَ إلى أنّ هذه الانتخابات أُدخِلت ضمن العملية [في اتفاق السلام الشامل] تحت إلحاح المانحين الدوليين للاتفاقية.[٣] على الرغم من ذلك فإن قصة محمد تستجلب تاريخًا قريباً من سوء الممارسة والمواءمة الرسمية المُعَدّين من الدولة للانتخابات التي لم تكن أكثر من [انتخابات] صورية؛ وفي هذا السياق الأكثر استعجالًا كيف يمكن أن تكون الانتخابات ناجحة؟ لقد حظي السودان بالعديد من الانتخابات خلال العقود الستة الماضية؛ ولم تنتج أي منها حكومة تتصف بأنها مقبولة بشكل واسع، ومستقرة. تستكشف هذه الورقة تاريخ الانتخابات عبر الاقتراع السري في السودان منذ الخمسينات من القرن العشرين، ساعيةً لإثبات كيف كانت كلها –بطرق مختلفة- إشكالية، وللنظر بعين الاعتبار لكيف من الممكن أن يكشف لنا هذا التاريخ عن أي من النتائج التي يرجح [أن تنتج] عن الانتخابات القادمة المخطط لها.

دراسة الانتخابات

١ انظر تغطية الصحف –على سبيل المثال- في «[جريدة] الصحافة» (الخرطوم، 17 أبريل 1983، وانظر نتائج [الاستفتاء] في نفس الجريدة بتاريخ 30 أبريل 1983.

٢ مقابلة مع محمد شريف فضل، 24 فبراير 2009.

٣ لتعليقات نقدية حول هذه الملاحظة انظر:

see Lindsay Whitfield and Abdul Raufu Mustapha, 'Conclusion: the politics of African states in the era of démocratisation' in Abdul Raufu Mustapha and Lindsay Whitfield (eds.), Turning Points in African Democracy (Woodbridge and Rochester, NY, James Currey, 2009), pp. 225-6. The role of the international sponsors in insisting on elections in Sudan is suggested by John Young, 'Sudan IGAD peace process: an evaluation' (unpublished paper, 2007), <http://www.sudantxibune.com/IMG/pdf7Igad_in_ Sudan.Peace.Process.pdf^, pp. 30-1; but see also Young's earlier suggestion that international sponsors had little interest in elections and that it was the ruling National Congress Party who wanted them: John Young, 'Sudan: a flawed peace process leading to a flawed peace', Review of African Political Economy 32, 103 (2005), p. 106

"الأراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن إدارة مركز تأسيس للدراسات والنشر"

في السودان –كما فيما سواه في أفريقيا- كانت الانتخابات عبر حق الاقتراع لكل البالغين والاقتراع السري من ابتكارات الحكم الاستعماري في سنيّه الأخيرة. وكان الصعود المفاجئ للاقتراع السري ليحتلّ المركز في النظام السياسي قد حدث جزئيًّا نتيجة مطالبات السياسيين القوميين –والذين اعتبروا الاقتراع السري نفسه علامة على الحس القومي المسؤول، والمنجنيق الضارب ضدّ المعاقل الأخيرة للحكم الاستعماري. ولكن هذه الانتخابات كانت أيضًا آخر وأكثر المشاريع الضبطيّة disciplinary projects طموحًا للدولة الاستعمارية، التدريب الأخير في الإحصاء والترصيف والعدّ.[١]

كان التسلسل الزمني ما بعد الاستعماري لانتخابات السودان لانمطيًّا بعض الشيء عند مقارنته بالوضع الأفريقي، كما سنوضح تفصيليًّا أدناه، ولكن هنا كما في المناطق الأخرى كان هنالك كل من الانتخابات التعددية وانتخابات الحزب الواحد، وإعلانات مضخّمة لنسب مشاركة هائلة في استفتاءات وحيدة المرشح، وأحيانًا منافسة محلية حيوية حول الناخبين. وفي السودان – كما في غيره- كانت إقامة الانتخابات عبر الاقتراع السريّ جزئيًّا نتيجة للضغط الخارجيّ وللمحاكاة العاكسة: كما أخبر رئيس مفوضية الانتخابات في السودان العامة في العام ١٩٥٨: «إن أعين العالم مسلطة عليكم».[٢]

لقد استكشفت دراسات الانتخابات عبر القارة أيضًا دور الانتخابات في بناء شبكات الزبائنية والمحافظة عليها، أو إبعاد أفراد المجموعة الحاكمة الذين سقطوا من خانة التفضيل[٣]. وخلال مناقشة التاريخ العميق للسلوك الانتخابي في أفريقيا ألمحَ البعض إلى أنّ كل طرق الانتخابات متشابهة على نحو ما، وأن الاقتراع السري ليس سوى وسيلة للتعامل مع الأعداد الضخمة[٤]. ولكن الانتخابات عبر الاقتراع سريّ مختلفة. فكما لاحظ توم يونج Tom Young أن استعمال الاقتراع السري لم يكن فقط نتيجة للضغط الخارجي المباشر، أو سعيًا لنتائج سياسية تكتيكية؛ ولكنه كان مجمّعًا ضمن المشروع الأوسع، مشروع التحديث والتنمية الذي كانت معظم الدول الأفريقية ما بعد الاستعمارية ملتزمة به، بغض النظر عن مدى الخداع الذي قد يكون طرأ على هذا المشروع.[٥] وارتأت الدراسات بشكل متكرر أنّ الاقتراع السريّ نُظِر إليه –حتى من قبل أشدّ الأنظمة الحاكمة سلطوية- بوصفه مصدرًا للشرعية.[٦] يحاجج [توم] يونغ بأنّ الاقتراع السري كان له تلك السلطة الكامنة لأنه يوفر –للبعض على الأقل- [نموذجًا] مثاليًّا متخيلًا، التشريع الإنجازي performative enactment للعلاقة بين الدولة الحديثة المنظِّمَة والمواطن الفرد العقلاني الملتزم؛ إن الاقتراع السري بهذا المعنى هو مغامرة ضخمة في مشروع الدولة الحديثة، المغامرة التي أطلق عليها تيموثي ميتشيل

١ F. Hayward, 'Introduction', in F. Hayward (ed.), Elections in Independent Africa (Westview, Boulder, CO and London, 1987),

٢ Text of public address, 25 February 1958 (National Record Office, Khartoum (NRO), Elecom (2) 1/3/20).

٣ Michael Cowen and Liisa Laakso, 'Elections and election studies in Africa' in Michael Cowen and Liisa Laakso (eds.), Multi-Party Elections in Africa (James Currey, Oxford, 2002), pp. 1-26; Whitfield and Mustapha, 'Conclusion', pp. 220-1

٤ Hayward, 'Introduction', pp. 5-6; Cowen and Laakso, 'Elections and election studies', p.3

٥ Tom Young, Elections and electoral politics in Africa', Africa 63, 3 (1993), pp. 299-312

وهذه النقطة الأساسية قد عبرت عنها إحدى الدراسات الأولى للانتخابات في أفريقيا:

William J. M. Mackenzie and Kenneth Robinson, 'Introduction', in William J. M. Mackenzie and Kenneth Robinson (eds.), Five Elections in Africa: A group of electoral studies (Oxford, Clarendon Press, 1960), p. 1.

٦ Hayward, 'Introduction', pp. 14, 17; Cowen and Laakso, 'Elections and election studies', p. 24.

"الأراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن إدارة مركز تأسيس للدراسات والنشر"

Timothy Mitchell «التأطير enframing».[١] كما أكدت الأعمال التاريخي\الإثنوغرافية الحديثة حول الاقتراع السريّ على الطريقة التي نُظِر بها إلى الأداء الانتخابي بوصفه أداة لإعادة صناعة الذاتيات السياسية polit-ical subjectivities. الناس يُحصَون ويُرتّبون وتُحدّد هوياتهم؛ ثمّ تُعرَض عليهم لحظة واحدة للقرار السياسي، والتي يكونون فيها منفصلين بشكل واضح عن قرابتهم والجيران، وعن الشيوخ والكهنة، وعن ملاك الأراضي وأرباب الأعمال[٢]. إنها مقاربة تردد بعض صدى ما ارتآه ستافان ليندبرج Staffan Lindberg أنّ الاقتراع السري يساعد في ترسيخ أشكال جديدة من الممارسة السياسية –وإن كان هذا الصدى بلغة مختلفة جدًّا-[٣]. في السودان كما في غيره عُقِدت الانتخابات عبر الاقتراع السري لأنّ بعض السودانيين على الأقلّ اعتبروها جزءًا من مشروع الدولة هذا، اعتبروها نشاطًا موجّهًا لا للجمهور الخارجيّ ولكن للشعب السوداني نفسه.

ولكن كان الالتزام بهذا [النموذج] المثاليّ متباينًا، وستحاجج هذه الورقة أنّ فهم تاريخ الاقتراع السري في السودان سيؤدي إلى كشف الغطاء عن حزمة مركّبة من المصالح والعمليات والتي نسميها –بشكل مختصر- «الدولة the state». إن «الانتخابات» كما يفهمها مكينزي Mackenzie وروبنسون Robinson «مركّبَة إداريًّا».[٤][٥] عبر التركيز بالتحديد على تفاصيل هذا التركيب [المعقد] –أي على ما يحدث فعلًا خلال عملية التسجيل وفي مراكز الاقتراع- ستلفت هذه الورقة الانتباه للموضع والمصالح المحددة للمسؤولين الإداريين، باعتبارهم متمايزين عن السياسيين التي ظلت أفعالهم بؤرة التركيز المعتادة في الدراسات حول الانتخابات. في السودان كان الشعور بالوعي الذاتي لدى الكوادر الإدارية على أنهم تجسيد الدولة القومية الحديثة مهمًّا بشكل لا يُقَدّر؛ فبالنسبة لهم كانت الانتخابات بوصفها مشروعًا قوميًّا ضبطيًّا جانبًا مركزيًّا من واجبهم. ولكن على الرغم من ذلك، لطالما أُحبِطَت رغبتهم في تحقيق [نموذج] الانتخابات المثالي: بسبب التحديات الهائلة للعمل في بلاد بحجم وضخامة السودان، وبسبب النزاعات السياسية والتي كانت جزئيًّا نتاجًا للرؤية الضيقة لهذه المجموعة حول الأمة الحديثة.[٦] ففي شمال السودان أُحبِط الاقتراع السري بسبب المنافسة السياسية المزمنة بين قادة الطوائف المسلمة (والذين غالبًا ما أدخلوا التوسلات بالإثنية في صراعاتهم)؛[٧] وفي الجنوب أُفسِد الاقتراع السري بسبب

١ Timothy Mitchell, Colonizing Egypt (University of California Press, Berkeley, CA, 1991), especially pp. 34-62.

٢ انظر على سبيل المثال:

Romain Bertrand, Jean-Louis Briquet, and Peter Pels, 'Introduction: towards a historical ethnography of voting' in Romain Bertrand, Jean-Louis Briquet, and Peter Pels (eds.), Cultures of Voting: The hidden history of the secret ballot (Hurst, London, 2007), pp. 1-15; also Peter Pels, 'Imaginer les elections: modernité, mediation et vote secret au Tanganyika à la fin de la période coloniale', Politique Africaine, 83 (2001), pp. 135-50

٣ Staffan Lindberg, Democracy and Elections in Africa (Johns Hopkins University rress, Baltimore, MD, 2006), pp. 19-20.

٤ Mackenzie and Robinson, 'Introduction', p. 4.

٥ استعملنا كلمة مركبة لترجمة complex تفريقًا بينها وبين معقد compli-cated، إذ أنّ التعقيد أعمّ من التركيب، وإن كان المركب في الغالب ينطوي على تعقيد. (المترجمان)

٦ لـ[معرفة] ضيق مشروع التحديث تحديدًا في السودان ما بعد الاستعماري انظر:

Heather Sharkey, 'Arab identity and ideology in Sudan: the politics of language, ethnicity and race', African Affairs 107, 426 (2008), pp. 21-43; also Ann Mosely Lesch, The Sudan: Contested national identities (Indiana University Press and James Currey, Bloomington, IN and Oxford, 1998); Amir Idris, Conflict and Politics of Identity in Sudan (Palgrave Macmillan, New York, NY, and Basingstoke, 2005), pp. 43-56

٧ Gabriel Warburg, Islam, Sectarianism and Politics in Sudan since the Mahdiyya (Hurst, London, 2003), pp. 142-221.

"الأراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن إدارة مركز تأسيس للدراسات والنشر"

ارتباطه بالدولة العنيفة السلطوية.[١] وأيضًا أحبِطَت الانتخابات من داخلها؛ فقد تشارك الإداريون في السودان إحساس بعض السياسيين أنه بينما قد يكون الاقتراع السري أداة ضبطية قوية، فإنه يجب الحذر لئلّا تضع نتائجه غير المتوقعة مشروع التحديث نفسه في الخطر، مثلًا عبر تسليم السلطة للجموع الريفية غير المتعلمة.[٢] ولذلك فقد أذعنوا للترتيبات الرسمية، ولسلوكيات غير-قانونية، وأضاف هذا في [تقوية] الانطباع [الموجود] عن انحياز الدولة.

إن النبرة المتشائمة الصادرة عن العديد من الدراسات حول الانتخابات في أفريقيا كانت مستندة على الاعتقاد بأن الغشّ [فيها] قد أحال العملية [الانتخابية] إلى «انتخابات [عبثية] صورية kangaroo elections، أحداث زائفة تُرضِي الرأي الدولي ولكن لا تنتج أي تغيير حقيقيّ.[٣] حاجج عمل بول كولير Paul Collier [البحثي] الجديد أنّ الاقتراع السري في البلدان الفقيرة يزيد العنف، لأن الناخبين يكونون مدفوعين بالعاطفة الإثنية وبغشّ النخب [لهم].[٤] من الواضح أنّ الانتخابات لم تساعد في تحويل العلاقة بين المواطن والخاضع citizen and subject في السودان، ولكن هذه الورقة تحاجج أنّ الغشّ الذي قام به السياسيون لم يكن المشكلة الوحيدة. في بلاد ضخمة جدًّا ذات [أدوات] تواصل فقيرة، وحيث معظم السكان غير معتادين على عمليات خلق الروتين الضبطية routinizing disciplinary processes الخاصة بالبيروقراطية، فإنه ليس من السهل تأدية كل إجراءات الاقتراع السري المتعددة بمعيار ثابت. لطالما كانت الدولة السودانية مفتقرة إلى الموظفين المهرة، وللموارد الأخرى، وحيثما كانت الموارد والزمن محدودين يمكن للأداء أن ينزلق بسهولة نحو الكذب. ستقترح هذه الورقة أن الانتخابات عبر الاقتراع السري يمكن أن تكون في مثل هذه الظروف النقيض التامّ لنموذجها المثالي –بعملها على برهنة الطبيعة الانحيازية والفاسدة وغير المؤهلة للسلطة، وبأن تزيل اللثام عن سوء أخلاق المسؤولين، وأن تشوه سمعتهم، وبأن توفر فرصة لتأكيد الحيوية المستمرة للروابط الجمعية في الدين والإثنية.

لاحظت الدراسات حول الانتخابات ميل الراصدين الدوليين لأن ينبهروا بشكل مغالً فيه بسبب الشواهد المرئية لأداء بعض عمليات الاقتراع السري.[٥] ستحاجج هذه الورقة أنه وفي حالة الانتخابات التعددية في السودان أخفِيت المشاكل جزئيًّا بواسطة الراصدين الذين كانوا منبهرين بغياب الغشّ الفاضح الذي اتصفت به الاستفتاءات العامة الثلاثة التي عُقِدت خلال فترة حكم [جعفر] نميري، فكانوا يميلون إلى تجاهل مشاكل الإجراءات. وصدق هذا على كل من الدبلوماسيين (الذين كانوا –على سبيل المثال- مستبشرين ببهجة حول انتخابات العام 1968 على الرغم من المقاطعة الضئيلة لها في جنوب السودان ومقتل قائد أكبر الأحزاب الجنوبية بواسطة الجيش خلال الحملة)، والأكاديميين والذين أظهر بعضهم نوعًا من التساهل التكرُّمي (مادحين «الأداء

١ انظر:

Peter Bechtold, 'More turbulence in Sudan: a new politics this time?' in John Voll (ed.), Sudan: State and society in crisis (Indiana University Press, Bloomington, IN, 1991), pp. 6-10; Atta el-Battahani, 'Multi-party elections and the predicament of northern hege- mony in Sudan' in Cowen and Laakso, Multi-Party Elections in Africa, p. 272.

٢ انظر على سبيل المثال آراء الصادق المهدي –الذي تقلد منصب رئيس الوزراء مرتين [في التاريخ السوداني]- مقتبسة في:

Warburg, Islam, Sectarianism and Politics, p. 224.

٣ Said Adejumobi, 'Elections in Africa: a fading shadow of democracy?', International Political Science Review 21, 1 (2000), pp. 59-73.

٤ Paul Collier, Wars, Guns and Votes: Democracy in dangerous places (Harper, New York, NY, and London, 2009), pp. 20-40.

٥ Gisela Geisler, 'Fair? What has fair got to do with it? Vagaries of election observers and democratic standards', Journal of Modern African Studies 31, 4 (1993), pp. 613-37

"الأراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن إدارة مركز تأسيس للدراسات والنشر"

الاستثنائي» للانتخابات، خلال ذكرهم بشكل شبه عابرٍ تمامًا لمشاكل النقل التي جعلت من المستحيل على بعض المسؤولين الالتزام بالمسار الزمني للتسجيل والاقتراع في ريف السودان).[١] إن هذا الموقف غير النقديّ لهؤلاء الراصدين عكس –وبدون شك كان أيضاً مدفوعاً جزئيًّا بـ- الإحساس القوي جدًّا بأن الانتخابات قامت ليُنظَر إليها بوصفها إظهارًا لحس الاحترام الدولي؛ بوصفها اختبارًا كان يجب اجتيازه لتُؤخّذ أمة جديدة على محمل الجدّ.[٢]

تعلم الانتخاب: انتخابات الخمسينات من القرن العشرين ١٩٥٠

كان التبني السريع نسبيًّا للاقتراع السري في السودان مدفوعًا بالتنافس السياسي المركب بين حكام السودان الاستعماريين مصر وبريطانيا. حيث سعى كل من الطرفين لنيل دعم النخبة السودانية المتعلمة عبر تنازلات، تضمنت الاقتراع [الانتخابات]؛ وكان عاقبة ذلك أن أصبح السودان مستقلًّا عن كل من القوتين في العام 1956 بعد «انتخابات حكم ذاتي» أقيمت في أواخر العام 1953.[٣] أظهرت الانتخابات –والتي عُقِدت في أجزاء واسعة جدًّا منها عبر الاقتراع السري (ضد رغبات المسؤولين البريطانيين)- خصائص متعددة كان من المرجوّ لها أن تكون مستمرة. كان من الأساسيّ بين هذه الخصائص الإحساس بأن الاقتراع السريّ علامة على النضج السياسي، وأن الانتخابات عبر الاقتراع السري اختبار وجوديّ للحس القومي، مفاده أنّه إذا ما استطاع الإداريون السياسيون إدارة انتخابات من هذا النوع، وشارك فيها السودانيون، فسيثبت السودان استعداده للاستقلال. وكما عبر أحد السياسيين قائلًا: «حينما تكون أعين العالم أجمع موجهة على بلادنا فإنّ من الواجب علينا إثبات أن في إمكاننا أن نحكم أنفسنا».[٤] كانت «لجان» الإداريين وغيرهم من العاملين في الخدمة العامة الذين أداروا الانتخابات مدفوعين بشكل صريح بإحساس الواجب القوميّ، مبلّغين بكل فخر كم كانت مراكز الاقتراع «هادئة» و«منظمة»؛ و شهدت بعض الدوائر الانتخابية في نهاية الاقتراع احتفالات للتهنئة الذاتية بشكل عَرَضِي، لا لأجل المرشحين الفائزين ولكن للمسؤولين عن الانتخابات.[٥] وقد كانت هذه التجربة المشتركة للانتخابات هي ما ساهمت في منح البرلمان السوداني الثقة في إعلان الاستقلال عقب ذلك بعامين – على الرغم من أن الغالبية من أفراده انتُخِبوا على أساس

١ عبر الدبلوماسيون البريطانيون عن احتفائهم بانتخابات العام 1968 -على سبيل المثال- في:

Grif- fiths to Sindall, 4 May 1968 (Archives, Kew (TNA), FCO 39/1

وللنظر في تقييمات أكاديمية احتفائية [بالانتخابات]:

Harold Gosnell, 'The 1958 elections in the Sudan', Middle East Journal 12, 4 (1958), pp. 409-17; Leo Silberman, 'The rise and fall of democracy in the Sudan', Parliamen- tary Affairs 12 (1958), pp. 349-76; Peter Bechtold, Politics in the Sudan (Praeger, New York, NY, 1976), pp. 146, 172.

٢ Bechtold, Politics in the Sudan, p. 141;

يقدم بيكتولد أيضًا [مقطعًا] مستخرجًا من مقال [صحفي] كتبه بازل ديفدسون Basil Davidson دليلًا على الموقف المتعاطف وغير النقدي.

٣ Justin Willis, '"A model of its kind": the Sudan self-government election of 1953', Journal of Imperial and Commonwealth History 35 (2007), pp. 485-502.

٤ «[جريدة] الرأي العام»، 24 نوفمبر 1953؛

Siddiq al Mahdi to Sukumar Sen, Electoral Commission, 5 Octo- ber 1953 (NRO, Elecom (1) 10/2/4).

وحول كون تصور الذي يرى بأنّ الاقتراع السري يكشف عن النضج السياسي فكرةً صرح بها السياسيون السودانيين: انظر على سبيل المثال:

El Amin bin Feki, President, National Unionist Party (NUP), Dilling to Electoral Commission, 8 June 1953 (NRO, Elecom (1) 2/2/9).

٥ Election Committee, Tonj, to Electoral Commission, 18 November 1953 (NRO, Elecom (1) 2/7/25).

لتوصيفات للاقتراع «الهادئ»، انظر على سبيل المثال:

Chief Election Officer Khartoum to Electoral Commission, 9 August 1953 (NRO, Elecom (1) 2/2/9); Secretary, Electoral Commission to all Chief Election Officers, 22 June 1953 (NRO, Elecom (1) 2/4/13).

ولتوصيفات لعملية الاقتراع انظر:

telegram, Returning Officer Singa to Electoral Commission, 23 November 1953; and telegram, Returning Officer Suki to Electoral Commission, 18 November 1953 (NRO, Elecom (1) 2/7/26).

"الأراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن إدارة مركز تأسيس للدراسات والنشر"

التزامهم الاعتباريّ بالوحدة مع مصر.

أما الصفة الثانية فقد كانت الإحساس الحاضر ما بين المسؤولين كون الأداء الانتخابي ككلّ أكثر أهمية مما إذا تمكن أفراد أو مجموعات محددة بالتمتع بحقهم في التصويت أم لا. وقد حفزت\أثارت شكاوى المسؤولين البريطانيين الثابتة أنّ السودانيين الريفيين –خاصة الجنوب سودانيين- قد يكونون عاجزين عن المشاركة بشكل ملائم في الانتخابات عبر الاقتراع السري رئيس اللجنة الدولية الانتخابية المختلطة –والتي كانت مشرفة على العملية- حتى كتب «تدرك اللجنة أنّ في الظروف السائدة في الجنوب هنالك خطر أن الانتخابات المقامة تحت أي إجراءات قد لا تكون نجاحًا قاطعًا ... ولكن لن يحسّن الأمور أن يستمر المسؤولون المكلفون بالترديد المرة بعد المرة أنّ الانتخابات لا يُمكن أن تُعقَد بصورة صحيحة».[١] كانت الرسالة واضحة – يجب أن تُعقَد الانتخابات حتى إذا ما أُقصِي بعض الناس منها. ولنفس السبب تجاهلت اللجنة الشكاوي التي تلقتها من كل الأطراف حول سوء الممارسة الانتخابية – خاصة استعمال الرشاوي والتهديد الرسمي- لأنهم خشوا أن التحقيق والعقاب الحازم قد يؤدي بهذا الحزب أو ذاك إلى عدم الاعتراف بالعملية بأكملها.[٢] وأصبح مجرد ضمان أن الانتخابات عُقِدت الهدف الأكثر الأهمية بالنسبة للجنة.[٣]

كان هذا الاستعداد لاستبعاد أعداد ضخمة من الناخبين المحتملين ناتجًا عن نوع النخبوية السياسية التي بُنِيت عليها انتخابات العام 1953، وقد كانت نفسها انعكاسًا لـ«ازدواجية» الدولة الاستعمارية.[٤] انتُخِب 92 مقعداً في البرلمان عبر «الدوائر الجغرافية» وكان حق الاقتراع للذكور الراشدين؛ وكان لهذه [الدوائر الانتخابية] متوسط سكان من حوالي 100,000 لكل دائرة. وكان هنالك خمسة مقاعد إضافية لـ«دائرة الخريجين» والتي وفرت تمثيلًا إضافيًّا لمن أكملوا التعليم الثانوي؛ وفي المجمل سجّل أكثر بقليل من 2,400 من الخريجين للتصويت في هذه الدائرة. استُمِدّ هذا التمثيل الإضافيّ من [التراث] الإمبريالي السابق –لم تكن مقاعد الجامعات في المملكة المتحدة قد أُلغِيت إلا قبل ذلك بالقليل-، ولكنه أيضًا عكس الإحساس الحاد لدى المتعلمين السودانيين بأنهم أقلية صغيرة ذات حقوق وواجبات خاصة: «يسترشد الأشخاص المتعلمون بأفكارهم أكثر من الطوائف المختلفة ... [صوت الخريج] يقدم دعمًا فكريًّا أصيلًا –وهو الأهم على الإطلاق- للبرلمان القادم.»[٥] كان الخوف المنتشر بين المتعلمين من أنّ حق الانتخاب العام قد يسلّم السلطة للقادة الطائفيين أو القبليين الذين قد يأمرون بالحصول على أصوات أعداد ضخمة من أتباعهم غير المتعلمين، كان هذا الخوف عاملًا ثابتًا في سياسة السودان المستقلّ؛ وابتُكِرت سلسلة من الأنظمة

١ (Sukumar Sen to Beaton, 18 October 1953 (NRO, Elecom (1) 10/2/4.

٢ "Willis, "Y'A model of its kind.

لنماذج عن الدعاوى [ضد الانتخابات]، انظر:

Secretary General, Umma Party to Electoral Commission, 15 October and 1 1 November 1953 (NRO, Elecom (1) 1 1/7/37); Hassan Abdel Gader, Secretary NUP El Obeid branch, to Electoral Commission, 4 October 1953 (NRO, Elecom (1) 2/4/12); Bell, Acting Civil Secretary, to Inspector- General, Egyptian Irrigation (Department, 22 August 1953 (NRO, Elecom (1) 10//2/4.

وكل الوثيقة المرقمة NRO, Elecom (1) 10/3/10 مخصصة لحادثة محددة هي تهديد مرشح محتمل بواسطة نائب مفوض بريطاني.

٣ وهي نقطة أوضحها بجلاء رئيس مفوضية الانتخابات:

Sukumar Sen to Beaton, 5 October 1953 (NRO, Elecom (1) 10/2/3).

٤ Mahmood Mamdani, Citizen and Subject: Contemporary Africa and the leg- (acy of late colonialism (Princeton University Press, Princeton, NJ, 1996.

٥ Secretary, Maahad Graduates Club to Electoral Commission, 6 May 1953 ((NRO, Elecom (1) 2/7/54.

"الأراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن إدارة مركز تأسيس للدراسات والنشر"

بغرض إعطاء وزن خاص لناخبي [القطاع] «الحديث».[١] وكانت حقيقة أن الناخبين نظروا إلى أنفسهم بوصفهم مجموعات ذات حقوق وواجبات سياسية محددة واضحة من المعدل العالي لمشاركتهم في دائرة الخريجين –حوالي ٪80؛ على النقيض من الدوائر الجغرافية التي شهدت مشاركة أقلّ بكثير.[٢]

وكان الإحساس بأنّ الانتخابات واجب قوميّ أوضحَ في انتخابات العام 1958. كان رئيس مفوضية الانتخابات التي أشرفت على العملية موظفًا رفيعًا في الخدمة المدنية، كما كان الأمين العام للمفوضية الدولية المختلطة لعام 1953. وقد كتب لمرؤوسيه:

إني بالنيابة عن المفوضية أتمنى لكم ولكل المسؤولين أفضل [الحظ] في هذه المهمة العظيمة التي نحن بصددها ... كلنا واثقون أننا في المستقبل سننظر إلى الانجازات والخدمة العظيمتين التي أسديتموها لهذه البلاد بكل فخر.[٣]

أثقلت مفوضيته طاقمها بالبرقيات والأوامر التوجيهية التي حضّتهم على تسجيل أكبر عدد ممكن من الناخبين وحددت]لهم[كيفية التعامل مع كل خطوة في الانتخابات (مع قوائم تفصيلية بالأغراض المطلوبة في مراكز الاقتراع) وأخبرهم «يجب عليكم أن تُسَرّوا بالتزام الناخبين بالدور وتنظيمهم أنفسهم في صفوف ذكية».[٤] ليس هنالك من شك في كون مفوضية الانتخابات تعاملت مع واجبها بجدية؛ يظهر ذلك بوضوح ناصع في الغضب المكبوت بالكاد في التقرير النهائي حول التلاعب بحدود الدوائر الانتخابية، والذي فرضته عليهم الحكومة.[٥] ولكن الأوامر التوجيهية الخاصة بالمفوضية كانت ببساطة من المستحيل اتباعها، وعليهِ –ويا للسخرية- كان لها أثر تشجيع الانحراف عن الإجراءات الصحيحة.[٦]

في جذر هذا الانفصال المتنامي بين الأمنية المعقدة حول الأوامر التوجيهية الدقيقة وحقيقة العملية الفوضوية وغير المنظمة يكمن الافتقار للموارد. فعلى الرغم من أن مفوضية الانتخابات كانت قادرة على استدعاء عدة آلاف من موظفي الحكومات المحلية والمعلمين، فإنه لم يكن هنالك طاقم متعلم كافٍ لتغطية كل هذه البلاد الشاسعة. اضطرت فرق التسجيل والاقتراع أن تتنقل في البلاد، وتجمع الأسماء والأصوات خلال فترة ممتدّة – ولكن لم تكن هنالك وسائل نقل كافية.[٧] أُخبِر الموظفون العائدون أنهم يجب عليهم تحضير وتقديم «تدريبات» للمرشحين ووكلائهم:

احرصوا على أن يحضر المرشحون ووكلائهم، ووكلائهم في

---

١ El-Battahani, 'Multi-party elections', p. 263.

٢ من الصعب توفير بيانات عن النسبة القومية للمشاركة في الانتخابات بسبب استعمال التصويت غير المباشر في [حالات] بعض المقاعد؛ ولكن في الخرطوم –على سبيل المثال- أدلى أقلّ من ٪50 ممن سجلوا بأصواتهم في انتخابات العام 1953: [هذه] البيانات من «التقرير النهائي لجنة انتخابات العام 1953» التابع للحكومة السودانية» (الحكومة السودانية، الخرطوم، 1954)، الملاحق.

٣ Hassan Ali Abdallah to all Chief Election Officers, 24 February 1958 (NRO, Elecom (2) 1/3/20).

٤ Secretary, Election Commission, to all Chief Election Officers, 1 November 1957 (NRO, Elecom (2) 1/3/18); Directive No. 13, 6 January 1958 (NRO, Elecom (2) 1/4/26).

٥ Government of Sudan, Election Commission s Final Report (Republic of Sudan, Khartoum, 1958), pp. 9-10

انظر أيضًا:

Bechtold, Politics in the Sudan, p.195.

«الانتخابات [البرلمانية في السودان]»، أحمد إبراهيم أبو شوك (مركز عبدالكريم ميرغني، أم درمان، ٢٠٠٨)، ص82.

٦ في كل من:

Bechtold, Politics in the Sudan, p. 173 and Gosnell, 'The 1958 parliamentary elections', p. 409,

[ستجد] ثناء مغدق للطبيعة التفصيلية للتوجيهات.

٧ Chief Election Officer, Malakal, to Election Commission, 2 November 1957; Chief Election Officer, Malakal, to Election Commission, 14 November 1957; Election Commis- sion to all Chief Election officers, 1 December 1957; Chief Election Officer, Kordofan, to Election Commission, 16 December 1957 (all in NRO, Elecom (2) 1/3/18).

"الأراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن إدارة مركز تأسيس للدراسات والنشر"

مراكز الاقتراع أيضًا التدريبات. اعرضوا أفلام انتخابات واسعة خلال هذه التدريبات. لن تكون للتدريبات فائدة مالم تُقَم مرتين أو ثلاث مرات أسبوعيًّا. يجب اضطرارًا على كل مديري وحدات الاقتراع وموظفي المراكز أن يحضروا هذه التدريبات.[١]

قبل ثلاثة أسابيع من الانتخابات أُخبِر [الموظفون العائدون] بأنّ التدريبات ستصبح يوميًّا من وقتها [وحتى الانتخابات].[٢] بينما في الدوائر [الانتخابية] الريفية لم يكن في الإمكان إحضار الطاقم المشتت [مكانيًّا] مُسبَقًا، لأنهم كان لديهم أعمال أخرى ولم تكن هنالك وسائل نقل – وعلى العموم لم يكن هنالك سوى نسخ قليلة من الأفلام، وأعداد أقلّ حتى من السينمات المتحركة.[٣] كانت مشاهد الفيلم نوعًا من الأخيولة الإدارية المزدوجة: عرض مُثِّلَ لإعطاء الأوامر التي وُجِّه الموظفون لإظهارها على الرغم من أنه كان مستحيل عليهم القيام بها. وفي لحظة أشد إثارة للحزن كتب رئيس مفوضية الانتخابات أنّ «من المأمول بصدق أن تجري الانتخابات بنفس المستوي/الكفاءة الذي خطط له على الورق».[٤]

لم يحدث ذلك، وأصبحت الفروق في التجربة الانتخابية التي أشارت إليها إحصائيات انتخابات العام 1953 أكثر حدّة نتيجة لذلك (القائمة 1). حيثُ كانت الدولة في أقوى [حضورها] –في الشمال النيلي، حيث كان هنالك طاقم مدرَّب ومركبات، وحيث كانت مستويات التعليم ما بين السكان أيضًا أعلى- كان كل من التسجيل ومعدلات المشاركة في الانتخابات جيدة، مما شجع التهنئة الذاتية البليغة ما بين الموظفين: «يجب علينا شكر مفوضية الانتخابات على الشرف الذي وهبته لنا بتمكيننا من القيام بعمل بارز في سبيل بلادنا.»[٥] ولكن في غيرها [من المناطق] كان التسجيل ومعدلات المشاركة في الانتخابات أقل جدًّا، وأشارت التقارير إلى أن العملية الانتخابات –مفتقرة للغاية إلى الموارد- معرضة للتوقف في وجه التوجس الشعبي.[٦] كانت تجربة الانتخابات للناخبين المحتملين في [إقليم] «أعالي النيل» التي صوت فيها فرد واحد فقط من كل خمسين من السكان، مختلفة جدًّا عن تجربة الخرطوم الكبرى حيث وضع واحد من كل عشرة صوته في الاقتراع.[٧] بعدة طرق يشبه [هذا الوضع] حالة «التجريد القانوني للحق في التصويت» الذي وصفه فريدريك سكافر Frederic Schaffer – ولكنه في هذه الحالة مدفوع لا بـ«تطهير» الانتخابات، ولكن بالاستعداد لتقبل حالات الفشل في الإجراءات التي تتطلبها انتخابات من هذا النوع.[٨]

انتخابات الستينات 1960

بعد شهور من انتخابات العام 1958 استولى الجيش على السلطة –بعد أن شجعه على ذلك رئيس الوزراء الذي خشي خسارة تصويت برلمانيّ. ربما كان فشل العملية الانتخابية في الفوز بسند [شعبي] واسع واضحاً بما فيه الكفاية عند النظر إلى الطريقة التي مضى بها الانقلاب في مسيره دون « [نشوء] أي غمغمة

١ Electoral Commission, Directive No. 12, 6 January 1958 (NRO, Elecom (2) 1/4/26).

٢ Electoral Commission, Directive No. 12, 6 January 1958, (NRO, Elecom (2) 1/4/ 26); Election Commission to all Chief Election Officers, 29 January 1958 ((NRO, Elecom (2) 1/3/20).

٣ Final report on elections, Northern province', undated (NRO, Elecom (2)' 1/1/10).

٤ Election Commission to all Chief Election Officers, 15 February 1958 (NRO, Elecom (2) 1/3/26).

٥ Final report, Omdurman West constituency, 7 April 1958 (NRO, Elecom (2) 1/1/4).

٦ Report on election work in Lou Nuer South Akobo', 21 March 1958 (NRO,' Elecom (2) 1/1/4); there are more guarded hints of problems in the 'Final report on elections in Kordofan Province', undated (NRO, Elecom (2) 1/2/11).

٧ Figures from the appendices to Government of Sudan, 'Election Commission's Final Report', 1958.

٨ Frederick Shaffer, 'Might cleaning up elections keep people away from the polls? His- torical and comparative perspectives', International Political Science Review 23, 1 (2002), pp. 69-84.

"الأراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن إدارة مركز تأسيس للدراسات والنشر"

من احتجاجات شعبية».[١] شهدت السنوات الست التالية انزلاقًا مطّردًا نحو حرب أهلية شاملة في الجنوب، عجّلت بها السلطوية المتزايدة والرؤية الضيقة التي تبنتها الحكومة العسكرية.[٢] وحينما أسقطت الإضرابات الشعبية الحكومة العسكرية في «ثورة أكتوبر في العام 1964، تبع ذلك مباشرةً [التحضير] لانتخابات تعددية لتشكيل «الجمعية التأسيسية» التي عليها أن تضع الأساس للحكومة وأن تكون مسؤولة عن وضع دستور جديد. كان إسقاط النظام العسكري بالفعل [نتيجة] حراك المتعلمين، سودانيو الحضر الشماليون، اللحظة السياسية في الخرطوم التي قادها الطلاب والمثقفون، وليس ثورة شعبية في أنحاء البلاد. بالنسبة لهذه المجموعة –المترابطة بقوة بالإداريين والسياسيين السودانيين- كانت الانتخابات إعادة تأكيد لحالة السودان بوصفه أمة حديثة، وبرهانًا بصلاحية الدولة السودانية. بينما جادل البعض لصالح تأجيل الانتخابات حتى الوصول لاتفاق تسوية في الجنوب، أصرّت الأحزاب السياسية الشمالية الكبرى على [قيام] انتخابات مبكرة.[٣] كانت هنالك نزاعات حامية الوطيس حول العملية [الانتخابية]، وبالتحديد حول قضية تصويت النساء ودائرة الخريجين. وكانت نتيجة ذلك مساومة انطوت على حق تصويت عام للبالغين وزيادة في مقاعد الخريجين؛[٤] وتبع ذلك اقتراع متعجّل، سبقته عمليات احتيال بالغة في حدود الدوائر الجغرافية قامت بها الأحزاب الطائفية الكبرى.[٥] وتُخلّي عن [إجراءات] الانتخابات بشكل كامل في معظم الجنوب، إذ واجهها مزيج من الارتياب الواسع [وسط الجنوبيين] ووجود العنف في بعض المناطق، والنقص في الطاقم ووسائل النقل. وعلى الرغم من التقارير المستبشرة التي قدمها بعض الراصدون كانت هنالك أيضًا مشاكل في العملية في أجزاء من شمال السودان. ففي مناطق الرُّحّل وأشباه الرحل» كان تسجيل الناخبين معتمدًا على قوائم قدمها القادة التقليديون الذين اعتمدت عليهم الإدارة المحلية. وفي سواه من المناطق كان من المفترض أن يكون التسجيل مباشرًا. ولكن في الواقع قام العديد من مسؤولي التسجيل –واقعين تحت ضغط مستمر لضمان مستويات عالية من التسجيل- ببساطة بقبول قوائم أسماء وفرتها لهم الأحزاب (والتي كانت نظرًا لحالة التنظيم القومي لمعظم الأحزاب، تتكون في الحقيقة من وكلاء المرشحين المحليين).[٦]

لم يتم إصدار بطاقات للناخبين؛ وإنما طُبِعت قوائم الأسماء بالترتيب الهجائي في السجلات الانتخابية. ورُقِّمت الأسماء على هذه القوائم تسلسليًّا حسب الترتيب الزمني لإضافتها إلى السجل، إلّا أنّ الناخبين لن يستطيعوا أن يعرفوا ذلك إلا باستشارة السجلّ النهائيّ

١ 'Silberman, 'Rise and fall of democracy.

٢ Douglas H. Johnson, The Root Causes of Sudan's Civil Wars (International African Institute, Oxford, Bloomington, IN and Kampala, 2003), pp. 30-1.

٣ [جريدة] الأيام (الخرطوم)، 19 يناير و 4 أبريل 1965.

٤ «الانتخابات [البرلمانية في السودان]»، أحمد إبراهيم أبو شوك (مركز عبدالكريم ميرغني، أم درمان، ٢٠٠٨)، ص130. ولرؤية النزاعات بشكل أوضح انظر إلى التقارير في جريدة الأيام 6 و 8 يناير 1965.

٥ يرى بيكتولد أنه لم تكن هنالك سوى القليل من الشكاوى حول الحدود في الانتخابات 1965-67 والتي تَلَتها في العام 1968 (**Politics in Sudan, p.167**)؛ ولكن أبو شوك وضح تفصيليًّا العديد من المخالفات «الانتخابات [البرلمانية في السودان]»وذكر رئيس مفوضية انتخابات العام 1968 وجود احتيال مباشر: في مقابلات شخصية:

interview, El Tayyib El Khalil, Khartoum, 2 March 2009; see also interviews with Adlan Hardallo, Khartoum, 19 January 2009; Siddig Yousif, Khartoum, 17 January 2009.

٦ لـ[معرفة] الإلحاح الرسمي على جعل التسجيل مباشرًا انظر المقابلات الشخصية:

El Tayyib El Khalil, Khartoum, 2 March 2009؛

ولـ[معرفة] حدوث قبول لقوائم الأحزاب انظر المقابلات الشخصية مع:

Abdel Rahman Gaili, Khartoum North, 25 February 2009؛ Ibrahim Moneim Mansour, Khartoum, 24 February 2009.

"الأراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن إدارة مركز تأسيس للدراسات والنشر"

المطبوع. وبينما كان من المفروض أن يُعرَض هذا للرقابة العامة، فإن هذا لم يحدث إلا متأخرًا –إذا ما حدث أصلًا-، ولذلك فإنه لم يكن إلا لقلة قليلة من الناخبين أن يتفقدوا أسماءهم أو أرقامهم قبل يوم الاقتراع.[١] وحتى في الخرطوم أشار التقرير الرسمي حول الانتخابات أنّه «لم يكن هنالك وقت كافٍ للتسجيل، مما أدى إلى العديد من الأخطاء التي كان من الممكن تجنبها.»[٢] ويوحي وصف بيكتولد Bechtold المنتقاة ألفاظه بعناية بشيء عن المشاكل الناشئة عن السجلات –والتي كانت بالنسبة للناخبين والمسؤولين الإثبات الوحيد للحق في التصويت-:

يوجد عائق إضافيّ في الحالة التي كانت عليها معظم قوائم التسجيل، تحديدًا عند النظر إلى مشكلة ترتيب الأسماء بالترتيب الهجائي على نحو صحيح.]حيث[يمكن تقدير أن حوالي ثلاثة أرباع أو أكثر من كل الأسماء السودانية تبدأ بأحد ثلاثة حروف.

دسّ بيكتولد في هامش [سفلي] ملاحظة أخرى أنّ «معظم السودانيين غير الأميين لم يكونوا إطلاقًا واثقين من] معرفتهم[للترتيب الصحيح للحروف في الهجائية العربية». [٣]

ونتيجة لهذه المشاكل لم يكتف وكلاء المرشحين بتجهيز الأسماء للتسجيل، ففي بعض الحالات ساعد وكلاء المرشحين الناخبين في إيجاد أسمائهم (أو أسماء تشبههم) على القوائم؛ ومن ثم قاموا لاحقاً بكتابة الأرقام التسلسلية على قطع من الورق، ليستعملها الناخبون بعد ذلك في محاولة إثبات حقهم في التصويت لطاقم مراكز الاقتراع.[٤] أمّا حيث لم توجد مساعدة من هذا النوع لم يكن للناخبين سوى أن يأملوا أن يجد الطاقم المرهق في مراكز الاقتراع أسماءهم، ربما مواجَهين باعتراض وكلاء خصوم [مرشحيهم] والذين قد يشككون في حقهم في التصويت.[٥] [وفي هذه الحالة] فمن المرجح أن يتمكن الناخبون الراغبون الذين حظوا ببعض التعليم ودرجة من الثقة الثقافية في التعامل مع المسؤولين، وبعض الخبرة عن الإجراءات البيروقراطية؛ في النجاح في الإدلاء بأصواتهم. أما في المناطق الريفية التي غالباً ما لم يكن المرشحون فيها قادرين على ترتيب هذا النوع من المساعدة في التصويت، اعتمد الناس بشكل كبير على علاقاتهم مع الرجال المحليين ذوي النفوذ، والذين عملوا كـ«معرِّفين [بالهويات] identifier» في كل مركز اقتراع، والذين كان دورهم متمثلًا في إقرار –أو إنكار- هوية الذين سعوا إلى التصويت.

تسلُّم قوائم الناخبين من وكلاء المرشحين، والتغاضي عن تدخلات هؤلاء الوكلاء حول مراكز الاقتراع كانتا طريقتين معروفتين لـ«تغيير القانون». وكذلك كان تقبّل [وجود] ثقافة متنامية لإطعام الناخبين المحتملين وتوصيلهم والترفيه عنهم [طريقة لذلك أيضًا]. في عام ١٩٥٣، تم منع توصيل الناخبين –بعد فترة من الشك– وبينما مُورِس حجم مقدّر من منح الهدايا للناخبين والمرشحين المحتملين بغرض التأثير عليهم، فإن هذا السلوك قد كُبِح بدرجة ما بسبب إمكانية اتخاذ إجراء

١ لـ[معرفة] الشكاوى المتعلقة بالتسجيل، انظر:

NUP, Omdurman, to Senior Election Officer, Khartoum, 25 March 1965; Abbas Dafalla, Umma Party, to Senior Election Officer, 22 April 1965 (NRO, Elecom (3) 1/2/8).

٢ Final report on geographical constituencies, Khartoum', 1965 (NRO, Ele-' .(com (3) 1/2/9

٣ .Bechtold, Politics in the Sudan, p. 149

٤ مقابلات شخصية:

Interviews, Siddig Yousif, Khartoum, 17 January 2009; Maaz al Hassan, Wad Medani, 9 January 2009.

٥ مقابلة شخصية:

Abdel Rahman Gaili, Khartoum North, 25 February 2009.

"الأراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن إدارة مركز تأسيس للدراسات والنشر"

قانوني]ضده[.[١] ولكن بحلول الستينات، أصبح كل من توفير وسائل النقل لتوصيل الناخبين لمراكز الاقتراع، وإطعام الناخبين وهم ينتظرون دورهم في التصويت سلوكيات شائعة.[٢] وعندما نأخذ بعين الاعتبار المسافة التي يحتاج بعض الناخبين الريفيين أن يسافروها ليصلوا لمراكز الاقتراع، وكذلك احتمالية أنهم وبمجرد وصولهم سيكونون مطالبين بالوقوف في صفوف لساعات خلال معاناة المسؤولين مع السجلات،]سنجد أن[توفير تلك الخدمات زاد فرص مشاركة هؤلاء الناخبين في الاقتراع. ولكنها بالطبع كانت معتمدةً كلياً على الموارد والقدرات التنظيمية التي يملكها المرشحون في أي دائرة انتخابية معينة. كانت نتائج ذلك في أجزاء مختلفة من شمال السودان هي وجود تفاوتات معتبر في معدلات المشاركة في الانتخابات، والتي كانت منخفضة جداً في مناطق عدة (الجدول ١).[٣]

في جنوب السودان، أجريت الانتخابات التكميلية في نهاية الأمر وكان ذلك في العام ١٩٦٧. لم يكن ذلك نتيجةً لنقصان مستويات العنف- وبالعكس فإن الأرجح أنها أصبحت أسوأ- مع أن التقرير النهائي لمفوضية الانتخابات علق بأن 'الاقتراع بدأ بهدوء في الجنوب'.[٤] ولكن كان السبب ببساطة هو ظن الصادق المهدي، والذي حظي حزبه (حزب الأمة) من تصويت ١٩٦٥ بأكبر عدد من المقاعد ولكن دون سيطرة واضحة على البرلمان، بأن بإمكانه الفوز بمقاعد برلمانية في الجنوب – حيث كان الأشخاص الوحيدين المتوقع تسجيلهم وتصويتهم هم موظفو الدولة والشرطة والجنود- وسيحدث ذلك بسهولة وبتكلفة منخفضة.[٥] وقد فاز حزب الأمة بالفعل بمقاعد جنوبية أكثر من أي حزب آخر، وفي العديد من الحالات بمعدلات مشاركة قليلة جداً.[٦] وبينما تستر التقرير الرسمي للانتخابات على المشاكل، أشارت تغطية الجرائد من جنوب السودان إلى أن الممارسة كانت بالفعل بعيدة جداً عن نص القانون:

«كان افتتاح الاقتراع مغلفاً بالسرية. فبمعزل عن الإعلانات بأن الاقتراع سيبدأ اليوم، لم يُعدّ أي توضيح عن ما إن كان الاقتراع سيفتتح في كل الدوائر الانتخابية بالجنوب والتي يبلغ عددها ٣٤ أم أنه سيكون متمرحلاً، محافظة بعد محافظة أو دائرة انتخابية بعد دائرة انتخابية. ولم يُعدّ أي إعلان من الإعلانات المعتادة عن مراكز الاقتراع في كل دائرة انتخابية ولا عن مدة استمرار الاقتراع في كل دائرة انتخابية... العديد من الناخبين المفترضين في القائمة لم يعلموا أبداً بأن أسماءهم على قوائم الانتخاب، وكان مصير ذلك أن جعل نسب الاقتراع منخفضة جداً».[٧]

بعد أشهر قليلة ذهب الناخبون في كل من الشمال والجنوب إلى الاقتراع مجدداً، وبينما كانت الأحزاب الطائفية المتنافسة تعاني في الوصول إلى أغلبية برلمانية، كان التسجيل والمشاركة في الاقتراع، بشكل عام، أعلى من 1965\67 ولكنهما كانا مجدداً منخفضين للغاية في الجنوب حيث «كان]منسوبو[الجيش والشرطة

١ أعلنت شرطة الخرطوم أنّه سيتم التعامل مع توصيل الناخبين كجرم في العام 1953: [جريدة] الرأي العام (الخرطوم)، 24 نوفمبر 1953.

٢ B. S. Sharma, 'The 1965 elections in the Sudan', Political Quarterly 37, 4 (1966), pp. 441-52; interviews";, Adlan Hardallo, Khartoum, 19 January 2009; Abd el Rahman Gaili, Khartoum North, 25 February 2009; Al Fadil Adam Abdallah, Fatiha Ithnain, Omdurman, 26 February 2009; Juba Local Government group, 4 February 2009; Ibrahim Moniem Mansour, Khartoum, 24 February 2009.

٣ Sharma, 'The 1965 elections', p. 452.

٤ 'Final Report of the Election Commission', 1965 (NRO, Elecom (3) 1/3/14).

٥ Hartland-Swann, FO, to British Embassy, Khartoum, 11 February 1967 ((TNA, FCO 31/195).

٦ فاز حزب الأمة بـ 15 من أصل 36 مقعدًا من مقاعد الجنوب التي تم التنافس عليها في العام 1967:

Hart to Sindall, 13 July 1967 (TNA, FCO 39/183); Bechtold, Politics in the Sudan, p.250.

٧ The Vigilant (Juba), 8 March 1967.

"الآراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن إدارة مركز تأسيس للدراسات والنشر"

الأشخاص الوحيدين فعلياً في قوائم الانتخابات في العديد من الدوائر الانتخابية» (الجدول ١).[١] وحتى في الخرطوم، شكى المسؤولون من نقص في وسائل النقل والعاملين المدربين.[٢]

انتخابات الحزب الواحد

من حيث القدرة على بناء دعم شعبي للحكومة المنتخبة، كانت انتخابات الأنظمة التعددية في الستينات غير ناجحة مثلها مثل قرينتها في الخمسينات. فقد أزيلت الحكومة مجدداً بدون احتجاج شعبي عندما قاد جعفر نميري انقلاباً في مايو ١٩٦٩.[٣] لم يكن نميري والمثقفون الراديكاليون الذين دعموه معنيين ب«الديمقراطية الليبرالية» [باعتبارها] 'المناخ المناسب للرجعية والتخلف» كما عبرت عن ذلك إحدى وثائقهم الأساسية.[٤] ولكن كان لصندوق الاقتراع السري –ولكن ليس الأحزاب السياسية- أن يلعب دوراً مهماً في بناء نوع مختلف من الديمقراطية. فقد عظم نظام نميري من «التخطيط الموضوعي والعلم الحديث»، وكان للممارسات المنضبطة للاقتراع السري مساهمة جيدة في الرؤية [القائمة على] التقدم الوطني الذي توجهه الدولة، فكما شرح نميري نفسه في إحدى خطاباته الطويلة على الراديو:

«اندفاع شعبنا لمراكز التسجيل للاستفتاء الرئاسي، بغض النظر عن النتائج، يمثل تنوراً مقدراً تم استقباله بالفخر والامتنان.

ملايين الناس الذين كانوا متحمسين ليمارسوا حقهم في أن يقولو «نعم» أو «لا» كانوا يعبرون فعلاً عن خير إنجازات هؤلاء الناس أنفسهم و انتصاراتهم. فقد كانوا يمثلون الوحدة الوطنية ويؤكدون ولاءهم لبلد واحد.

كان الملايين الذين يمارسون حقهم يعلنون فعلاً عن إيمانهم الجديد بوحدة القيادة بدلاً عن تعدد الولاءات، وحدة الأرض بدلاً عن الطائفية، والولاءات الإقليمية والعنصرية المهزومة».[٥]

جدول ١: معدلات المشاركة في الاقتراع في الانتخابات البرلمانية للمحافظات، مبيّنة كنسب من العدد المقدر للسكان (وكأعداد محضة)

الولاية/السنة	١٩٥٨	٦٧\١٩٦٥	١٩٦٨	١٩٨٦
الخرطوم	١٥ (٨٢,٥٩٨)	١٦ (١٢٠,١٣٥)	٢٥ (١٩٣,٩٣٨)	٣٥ (٦٣٤,٦٣١)
كردفان	١٠ (١٨٨,٠٩٣)	١٢ (٢٤٠,٧١٨)	١٥ (٣٠٦,٧٦٣)	١٩ (٥٥٩,٣٤٤)
الشمالية	١٠ (٩٧,٥٤٣)	١٠ (٩٩,٣٤٢)	١٨ (١٨٣,٢٨١)	٣٩ (٣٩٢,٩٨٦)
كسلا	٩ (٩١,٨٤٢)	٧ (٩٧,٨٤٢)	١١ (١٦٤,٨٩٩)	٢٢ (٤٩٠,٦٠٧)
النيل الأزرق	١٤ (٣١٥,٥٩٧)	١٧ (٤٥٤,٣٥١)	٢٢ (٦١٥,٥٤٢)	٣٢ (١,٢٤٦,٨٧٤)
دارفور	٧ (٩٤,٥٩٩)	٨ (١١٣,٨٤١)	١٤ (٢١٣,٢٤٠)	١٥ (٦١١,٩١٥)
بحر الغزال	٧ (٧٧,١٩٣)	٨ (١٠٤,٢٧٠)	٨ (١٠٦,٨٦٥)	١ (٨,٢٦٧)
أعالي النيل	٦ (٥٣,٩٩٢)	٣ (٣٣,٥٤١)	٥ (٥٨,٩٩٤)	٢ (٣٣,٨١٨)
الاستوائية	٩ (٨٥,٩٠٨)	<١ (٥,٦٣٣)	٢ (٢٢,٣٨٣)	٦ (٩٥,٧٨٦)
المجموع	١٠ (١,٠٨٧,٣٥٥)	١٠ (١,٢٦٩,٦٥٣)	١٤ (١,٨٦٥,٩٠٥)	٢٠ (٤,٠٧٤,٢٢٨)

المصادر: «التقرير النهائي للجنة الانتخابات»؛ 1958، والملحق «د»؛ [كتاب] «الانتخابات [البرلمانية في السودان]» لأبو الشوك، ص148؛

١ عن مناقشات مع:
(Hilary Logali, August 1968 (TNA, FCO 39/185;
وانظر أيضًا:
J. Howell, 'Politics in the southern Sudan', African Affairs 72 , 287 (1973), pp. 163-78.

٢ Final report on elections, Khartoum Province, 1968 (NRO, Elecom (4)' (1/18/114.

٣ Bechtold, Politics in the Sudan, p. 257.

٤ Sudan Socialist Union, Charter for National Action, 2 January 1972 (Copy of English version in TNA, FCO 39/1150).

٥ Text of Nimeiri's 'Face the Nation Address', 29 April 1977 (English translation Sudan News Agency, TNA, FCO 93/1184).

"الأراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن إدارة مركز تأسيس للدراسات والنشر"

Bechtold, Politics in the Sudan, Tables 7.2, 7.5; statistical appendices to Report of the Election Commission", 1986.

أقام نميري ثلاثة استفتاءات لمنصب الرئيس، كانت النية منها أن تكون مسرحيات عامة لعرض الولاء.[١] وقد كانت [هذه الاستفتاءات] هي السياق الذي وقعت فيه حادثة تكديس صندوق الاقتراع التي ذُكِرت في بداية هذه الورقة، ولمسرحيات هزلية أخرى عن « الاقتراع السري»، مثل استخدام نظام من صندوقين للاقتراع، أحدهما للتصويت بـ«نعم» والآخر للتصويت بـ«لا»، حيث وُضِعت هذه الصناديق بطريقة تمكن المسؤولين من رؤية الصندوق الذي استخدمه الناخب بوضوح.[٢]

شهدت فترة نميري كذلك سلسلة من الانتخابات لبرلمان، أو «مجلس الشعب».[٣] منحت هذه]الانتخابات[وزناً سياسياً مميزًا لأشخاص ذوي أنواع محددة من الوظائف أو التعليم، الذين سيمثلون «أجسام ثورة مايو» في ما سمي بالمقاعد ال«فئوية».[٤] أصبحت قائمة المقاعد الفئوية أكثر وضوحاً بشكل متزايد: فمع المزارعين والأطباء البيطريين، كانت هنالك مقاعد للمحاسبين، وخريجي الجامعات ذوي التخصصات الزراعية والإداريين.[٥] صوَّتَ القليل من الناس في [مقاعد] هذا التمثيل «الفئوي»، وكان معظم هؤلاء المصوتين في مناطق حضرية. ففي 1980، انتخب أحد المرشحين ليمثل «الاقتصاديين والمسؤولين الماليين» بمجموع 732 صوتاً على المستوى القومي، 586 صوتاً من هذه الأصوات كانت في الخرطوم.[٦]

أشرفت على انتخابات نميري «لجانُ انتخابات فنية»، والتي أرسلت دفقاً من الموجهات التي طالبت المسؤولين بأداء القسم وقدمت تعليمات منمقة، إحدى هذه التوجيهات المنمقة ألحت]على المسؤولين[: «شاركوا في العديد من الاقتراعات التدريبية».[٧] ولكن الإجراءات الانتخابية أصبحت أكثر بعداً من النظام [المثالي] المتخيل لهذه التعليمات. فقد كانت الضغوط على المسؤولين متمثلة في تقديم قوائم طويلة من الأسماء لإظهار مدى شعبية الانتخابات، وفي التأكد]لاحقاً[من أن العديد من هذه الأسماء شُطبت من القائمة في يوم الانتخابات. في بعض الأماكن، تمكن المسؤولون من اختصار ذلك بمهارة، فلم يكن هنالك تسجيل، وأتى الناس للتصويت وكتبت أسماؤهم أثناء ما كانوا يصوتون، وفي أماكن أخرى كتب المسؤولون المحليون بدقة قوائم من أسماء دافعي الضرائب بأيديهم في دفاتر، ومن ثم قسموا هذه الأسماء حسب الترتيب الأبجدي، واستخدموها كسجلات للناخبين.[٨] في السنوات الأخيرة للنظام، وعندما أصبح النقص]في السلع الأساسية[أكثر شيوعاً، بدأ المسؤولون باستخدام قوائم الحصص التموينية لتكوين قوائم

١ [جريدة] الصحافة (الخرطوم)، 10 أبريل 1983.

٢ مقابلات شخصية:

Al Hadi Abdul Samad, Khartoum, 18 January 2009; Abdel Rahman Gaili, Khartoum North, 25 February 2009; Mohammed Ahmed Salim, Khartoum, 1 March 2009.

٣ Mansour Khalid, The Government They Deserve: The role of the elite in Sudan's political evolution (Kegan Paul, London, 1990), pp. 258-9.

٤ Final report on elections to the First People's Council' (NRO, Elecom (5) 11/1/3); Interview, Mahgoub Mohammed Salih, Khartoum, 17 January 2009; Mukhtar al Assam, Khartoum, 18 January 2009.

٥ انظر على سبيل المثال:

Notice, 20 May 1980 (NRO, Elecom (5) 14/3/22).

٦ Results of economists and financial officers' seat for the 4th People's Council' (NRO, Elecom (5) 4/3/26).

٧ Directive No. 4, 10 February 1983 (NRO, Elecom (5) 14/1/4); for oaths, see Directive No. 1, 26 February 1974 (NRO, Elecom (5) 14/1/5); Directive No. 1 ((NRO, Elecom (5) 14/1/8).

٨ بعض هذه الكتب محفوظةٌ في أرشيف حكومة جنوب السودان في جوبا.

"الأراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن إدارة مركز تأسيس للدراسات والنشر"

للناخبين.[١] في بعض الدوائر الجغرافية –والتي كانت كبيرة جداً- كانت هنالك العشرات من المرشحين، واقفين جميعاً لتأييد الاتحاد الاشتراكي السوداني، الحركة السياسية الوحيدة المسموح بها. واعتمد المرشحون كلياً على الولاء القبلي والشعبية الشخصية، وأصبحت الانتخابات أشبه ما يكون بأداء مسرحي ساخر لطقوس الاقتراع السري. أُعِدّت أوراق اقتراع بخمس وعشرين رمزاً [لتمثل] مرشحين مختلفين، ولكن حتى ذلك لم يكن كافياً في بعض الدوائر الانتخابية، فوُجِه المسؤولون بربط ورقتين معاً، بالرغم من أنه لم يتم إخبارهم بالطريقة التي يجب أن يستخدمها الناخبون ليوضحوا إن كانوا يريدون المرشح الممثل بالشجرة في الورقة الأولى، أو المرشح الممثل بالشجرة في الورقة الثانية.[٢]

فقد نميري السلطة في العام 1985، حيث خلعته انتفاضة شعبية؛ وكما حدث في العام 1964 توجه السياسيون والإداريون بعد ذلك إلى انتخابات برلمانية بالاقتراع السري كتأكيد لاستمرار صلاحية السودان كدولة، وفي وجه حرب متصاعدة بسرعة في الجنوب.[٣] وقد تشجّعوا للقيام بذلك جزئياً رغبةً في الاحترام الدولي، ولكن أيضاً لأن الأحزاب الطائفية الرئيسية في شمال السودان اعتقدت بأن الانتخابات ستمكنها من حشد الأصوات الريفية بما سيزيد قوتها ضد العناصر الأكثر راديكالية التي شاركت في الانتفاضة.[٤] كان هناك الكثير من الجدال عن النظام الذي يجب استخدامه، وانتهت هذا الجدالات باتفاق على أن يكون ٢٧٣ عضواً من أعضاء البرلمان منتخبين بتصويت شامل للبالغين في دوائر جغرافية، و٢٨ عضواً منتخبين في دوائر خريجين خاصة، بحيث يكون جمهور الناخبين فيها مكوناً من الأشخاص الذين أكملوا عامين أو أكثر من التعليم ما بعد الثانوي – والذين امتلكوا، بكلمات أحد المسؤولين، «إدراكاً» سياسياً أعلى.[٥] ومرة أخرى، عُيّنت مفوضية انتخابات مكونة من ثلاثة أشخاص (ضمت رجلاً خدم في مفوضية انتخابات 1968) ومرة أخرى شغلت المفوضية نفسها بإصدار الموجهات.

قاطعت حركة المتمردين الرئيسية، حركة تحرير السودان (SPLM))، الانتخابات العامة، مجادلة بأنه يجب أولاً التفاوض على اتفاق سلام يخاطب مطالبهم بتحول سياسي. وضغطت الإدارة الانتقالية في الخرطوم في اتجاه الانتخابات، عاقدةً العزم على أن تستعرض اقتراعاً قومياً منكرة واقع العنف المنتشر في الجنوب، وانهيار سيطرة الحكومة في العديد من المناطق. في هذه الانتخابات، لم يتم أي تصويت على الإطلاق في ٣٧ من الدوائر الجنوبية التي يبلغ عددها ٦٨. وكما في الستينات، كان التسجيل والمشاركة في الاقتراع ضعيفين جداً حتى في الدوائر الجنوبية التي أقيم فيها الاقتراع. وعلى النقيض، كان التسجيل والمشاركة في الانتخابات في الخرطوم الكبرى والمحافظة الشمالية –على خط النيل- كبيرين بالفعل (الجدول ١)، وحتى هناك، وبالرغم من الخلافات الأيديولوجية الحادة بين بعض الأحزاب المتنافسة – الشيوعيون والبعثيون والجبهة الإسلامية القومية- فقد

١ مقابلة شخصية:

Mohammed Ahmed Salim, 1 March 2009.

٢ .(Directive No. 12, 16 April 1974 (NRO, Elecom (5) 14/1/5

٣ .Johnson, Root Causes, pp. 59-81

٤ مقابلة شخصية:

Adlan Hardallo, Khartoum, 19 January 2009.

٥ «الانتخابات [البرلمانية في السودان]»، أحمد إبراهيم أبو شوك، صـ199-201؛

James Chiriyankandath, '1986 elections Sudan: tradition, ideology, ethnicity - and class?', Review of African Political Economy (1987), pp. 96-102; Mohammed Ahmed Salim, quoted in As Sahafa (Khartoum), 1986; Mukhtar al Assam and Jaafar Karrar, 'The meaning of the results in the constituencies in the 1986 elections' (DSRC Seminar Paper, University of Khartoum, 1986).

"الأراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن إدارة مركز تأسيس للدراسات والنشر"

اعتمدت الحملات على الروابط العائلة أو المحلية، فكما شرح أحد المرشحين الفائزين من الجبهة الإسلامية، وهي حزب إسلامي:

«ذهبت لجميع المراكز، الأماكن التي يمكن أن تجد فيها الناس، والتي يمكن أن يكون لديك فيها منفذ: النوادي، وبالخصوص أندية كرة القدم، والأندية الاجتماعية. وفي حالات غير تلك المسجد.. زيارة المسجد كل أسبوع، وأداء الصلوات والحديث بعدها بشكل غير رسمي. بذلك أجد الكثير من أقرباء الدم، ولاءات مناطقية من حيث آتي من الشمال، كان الناس حقاً غير متأكدين أيديوجياً... إنها علاقات العائلة التي يمكنك فعلاً أن تعتمد عليها».[١]

اعتمدت نسب التسجيل والمشاركة العالية في بعض المناطق على ممارسات خالفت الموجهات الرسمية للمفوضية: قبول قوائم]جاهزة [للناخبين، تجاهل ممارسات إطعام وتوصيل وتحليف الناخبين، السماح للوكلاء بمساعدة الناخبين المحتملين في التأكيد على حقهم في التصويت في مركز الاقتراع. وحول الخرطوم كان العدد المتزايد لـ» النازحين داخلياً»، الذين دُفعوا إلى العاصمة من غرب وجنوب السودان بالمجاعة والحرب، كتلةً جديدةً للناخبين، الذين كان من الممكن أن يتم التلاعب بهم عبر المسؤولين أو الزعماء الذين يحظون باعتراف الحكومة:

«كان هنالك تهديدات أيضاً في مراكز النازحين، لأنه وفي العادة.. النازحون بعضهم كان يُطرَد من مكان إلى آخر، ولذلك أي شخص يتحدث كثيراً، أو يحظى بهذا الدعم الإسلامي سيكون الشخص الذين ينتخب؛ لأنهم كانوا يستخدمون الزعماء، الزعماء المُعينون على مخيمات النازحين. كان هؤلاء الناس متحكماً فيهم عبر هؤلاء الزعماء، ليذهبوا ويصوتوا.. يحشدون ليصوتوا».[٢]

أدت ممارسات من هذا النوع أيضاً إلى تسهيل التصويت المتعدد [عدة مرات] وانتحال الشخصيات، والتي تلمح لها الأرقام العالية –أو المستحيلة ببساطة- للمشاركة في الاقتراع.[٣] ومرة أخرى، كان هناك تلاعب بترسيم الحدود الجغرافية للدوائر. وتسابقت الأحزاب لاستغلال الأصوات الإضافية الممنوحة للمتعلمين. وكانت الجبهة الإسلامية القومية الأكثر نجاحاً في ذلك، مستغلةً قوانين تصويت الناخبين المغتربين ببراعة لتضمن فوزها بالأغلبية العظمى من مقاعد الخريجين.[٤]

في بعض أجزاء شمال السودان التي تقع وراء قلبه النيلي، كانت المشاركة في الاقتراع والتسجيل أقل]من نظيرتها في القلب النيلي[–ولكن لا زالت أفضل بكثير من تلك في الجنوب- وكانت الأخطاء الإجرائية التي وقفت جزئياً خلف ذلك منتقدةً بشدة من قبل بعض المراقبين السودانيين

١ مقابلات شخصية:

Ahmed Abdel Rahman, Khartoum, 19 January 2009, Mohammed Ahmed Salim, Khartoum, 1 March 2009;

انظر أيضًا: «الانتخابات [البرلمانية في السودان]»، أحمد إبراهيم أبو شوك، ص223.

٢ مقابلة شخصية:

Juba Local Government Board, 4 February 2009.

٣ كانت الدوائر الانتخابية ذات نسب المشاركة ٪100 هي: الدائرة 44 (أم درمان ود نوباوي)؛ والدائرة 46 (أم درمان المسالمة\الموردة)؛ والدائرة 111 (سنجا)؛ والدائرة 141 (جنوب الفاشر)؛ 189 (شرق كسلا). وكانت الدوائر ذات نسب المشاركة ٪90 فما فوق هي: الدائرة 21 (الخرطوم 1)؛ والدائرة 37 (شرق النيل 1)؛ والدائرة 39 (شرق النيل 3)؛ والدائرة 59 (جنوب بربر). وسجلت الدوائر الانتخابية الأخرة بشكل متكرر معدلات مشاركة تزيد على ٪80 من الناخبين المسجلين. وربط أحد من عقدنا معهم معاينة بصورة صريحة بين بيانات التصويت الإشكالية في العام 1986 وبين وجود النازحين داخليًا:

Mahgoub Mohammed Salih, Khartoum, 17 January 2009.

٤ مقابلة شخصية:

Mukhtar al Assam, Khartoum, 18 Januray 2009.

"الأراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن إدارة مركز تأسيس للدراسات والنشر"

في ذلك الوقت.[١] فمجدداً، اعتمد التسجيل والمشاركة في الاقتراع في ريف السودان على مشاركة وسطاء، عادةً ما كانوا رموزاً محليين ادعوا نوعاً من السلطة استناداً على القبيلة أو الدين.[٢] وعندما استولى الجيش على السلطة مجدداً في العام 1989، لم يقم كذلك أي تحرك شعبي للدفاع عن الحكومة المنتخبة.

الانتخابات و[نظام] الإنقاذ الوطني

قدمت مجموعة الضباط والمنظرين الإسلاميين الذين استولوا على السلطة في يونيو 1989 منطقاً جديداً لسلسلة الممارسات التي تتضمن الاقتراع السري]والتي شملت[: انتخابات رئاسية وبرلمانية في العامين 1996 و2000، واستفتاء على دستور جديد في العام 1998. حيث قُدِّم كل هذا بوصفه انفصالًا عن الصيغة الأجنبية المفروضة]على السودانيين[من الديمقراطية، وبوصفه، في نفس الوقت، قطيعة متعمدة مع «التقليد». فبدلاً لكل ذلك ستكون [الممارسات] أداة لـ«التجديد»، واجتُلِبت هذه المصطلحات من نقاشات أوسع عن دور الإسلام والتي ركزت على دوره بوصفه طريقًا للتجديد. ستكون الانتخابات في نفس الوقت فرصة للشعب ليقدم «بيعته» لقائد يقتضي قبوله لهذه البيعة أن السلطة في النهاية بيد الله.[٣] ولكن بالرغم من التشديد على اتحاد الآراء جماعيًّا، لعب صندوق الاقتراع السري دوراً أساسياً في كل من هذه المناسبات. فقد تم الإعلان من خلال الصحافة والمساجد بأن التصويت واجبٌ عامٌ وديني، وافتخر منظمو الانتخابات بوضعهم لقانون وأنظمة للانتخابات وافتخروا بممارسة بعض طقوس الاقتراع – اختيار الرموز، إغلاق وفتح الصناديق وما إلى ذلك-.[٤] دُعِيَت الصحافة العالمية وغطت الصحافة السودانية الانتخابات بتوسع معتبر، موردَة بمهنيةٍ بيانات نسب المشاركة في الاقتراع، ومبلغةً عن بعض المشاكل البسيطة المزعومة في الإجراءات.[٥]

وعلى كل حال، انتُقِدت الانتخابات بشكل واسع. وفي العام 1996 كان معظم الأفراد الذين وقفوا]كمرشحين[ضد الرئيس عمر البشير أشخاصاً غير معروفين؛ وكانت الصحافة مضبوطة بإحكام؛ واستُخدِمت موارد الدولة بحرية في حملة الرئيس. وكان من المعترف به بشكل مفتوح أن التسجيل قد تم على أساس وضع قوائم متعددة]وموجودة سلفاً [للأسماء مع بعضها البعض.[٦] كانت هناك اتهامات بأن صناديق الاقتراع قد مُلِئت من قبل مسؤولين متلهفين، وكانت هناك قوائم خاصة للناخبين من أعضاء القوات النظامية، وأشيع أن ملايين الصناديق المُفسَدَة قد دُمِرت تجنباً لتشويه بريق انتصار البشير.[٧] كان هناك على ما يبدو اتجاهات جديدة لسوء

١ كان أحد الناقدين البارزين هو الشريف الهندي. مقابلة شخصية:

Shendi Group, 28 February 2009.

٢ مقابلة شخصية:

Halima Hamid Musa, Omdurman, 1 March 2009.

٣ حدث أوضح نقاش حول هذه الأفكار في مؤتمر «المنظور الإسلامي للانتخابات»، الذي كتبت عنه [جريدة] السودان الحديث (الخرطوم)، 6 مارس 1996؛ انظر بالتحديد الفصل [الآتي]:

'The democracy of Westminster is not appropriate to Sudan'.

انظر أيضًا: كتاب «الترابي والإنقاذ: سيرة الهوية والهوى» لعبد الرحيم عمر محي الدين (الخرطوم، 2005)، ص67 فما بعدها.

٤ مقابلة شخصية:

Abdel Moneim en Nahas, Riyadh, Khartoum, 20 January 2009;

[جريدة] السودان الحديث (الخرطوم)، 14 و 26 فبراير و 4 مارس 1996؛ و[جريدة] الصحافة (الخرطوم)، 15 و 18 ديسمبر 2000.

٥ [جريدة] السودان الحديث، 2 و 13 و 16 مارس و 26 أبريل 1996.

٦ [كتاب] الانتخابات في السودان، [عوض السيد] الكرسني وآخرون (دار جامعة الخرطوم للنشر، الخرطوم 1999) ص53-50.

٧ انظر إلى التعليقات القديمة في [جريدة] الصحافة (الخرطوم)، 9 ديسمبر 2000.

nterview, Shendi Group, 28 February 2009; el Battahani, 'Multi-party elections'; Lesch, Sudan: Contested National Identities, pp. 124-5.

"الأراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن إدارة مركز تأسيس للدراسات والنشر"

الممارسة: فلم يقف استعمال مركبات الحكومة عند توصيل الناخبين إلى مراكز الاقتراع فحسب، ولكن ذكر [مراقبون] أن صناديق الاقتراع نقلت في بعض الحالات إلى التجمعات العامة –للأعراس والعزاءات- وأعطي الناس أوراقَ اقتراعٍ ليضعوها في الصناديق.[١] دَمَجت هذه الانتخابات بصورة صادمة طريقتين «لتغيير القوانين»، الغش المباشر الذي تطور في فترة نميري وتركيبة من الإجراءات [المثالية] المتخيلة التي كانت في واقعها حيلاً محلية متعددة لزيادة نسب المشاركة.

الانتخابات القادمة [في العام 2010]

الانتخابات التي خطط لها في الأصل لتقام في العام 2009، وأُجِّلَت الآن إلى العام 2010، ستكون أكثر تعقيداً من أي انتخابات أجريت من قبل في السودان. وسيكون ذلك جزئياً، نتيجة للالتزام القومي اتجاه اللامركزية الذي تبنته أنظمة متعاقبة في الخرطوم –وهو نظير ساخر في الواقع للسلطوية المستمرة للدولة. أُنشِئت مستويات متعددة من هياكل الحكومة المنتخبة، التي يجب أن يتم التصويت عليها: الرئيس القومي، رئيس الحكومة المستقلة لجنوب السودان، حاكم كل من الولايات الست وعشرين «المفوضة» التي قُسِّم السودان إليها، البرلمان القومي، برلمان كل ولاية، وبرلمان جنوب السودان. وستزداد انتخابات البرلمان القومي وبرلمانات الولايات وبرلمان جنوب السودان تعقيداً بسبب [شكل] نظام التصويت. ففي كل من هذه الأجسام سيُنتخَب ٦٠٪ من الأعضاء عبر الدوائر الجغرافية على أساس نظام تصويت الفائز الأول ((first-past-the-post. لا توجد «دوائر خريجين»، ولكن مفهوم التمثيل الخاص قد ظهر بصيغة جديدة، فربع المقاعد في كل برلمان محفوظة لعضوات [إناث]، سينتخبن في اقتراع البالغين باستخدام نظام تمثيل نسبي على مستوى كل ولاية، وحفظت نسبة ١٥٪ إضافية لأعضاء «قوائم الأحزاب»، الذين سينتخبون بصورة مشابهة. وبينما قد يبدو تخصيص مقاعد للنساء كالتزام محمود اتجاه تمكين النساء، فإن من المرجح أن كلا من نصيب النساء والأحزاب من المقاعد سيخدم حزب المؤتمر الوطني الحاكم؛ لأن الحملات على المستوى الولائي ستتطلب موارد وقدرات تنظيمية تفوق قدرة أي فرد، وعلى الأرجح ستفوق قدرات الأحزاب الطائفية القديمة أيضاً، والتي أضعفتها الانقسامات وإبعادها الطويل من السلطة.

ستجعل هذا الترتيبات أيضاً من التصويت عمليةً معقدةً جداً. ففي شمال السودان، سيضع كل مصوت ٨ أوراق اقتراع (واحدة للرئيس، وواحدة لحاكم الولاية، وثلاث للبرلمان القومي، وثلاث للبرلمان الولائي). وفي جنوب السودان، ستكون هنالك اثنتا عشرة ورقة اقتراع- تلك المذكورة أعلاه، إضافة إلى واحدة لرئيس الجنوب وثلاث للبرلمان الجنوبي. لو أدلى كل ناخب بأوراق الاقتراع هذه في نفس الوقت، سيكون من المرجح أن تكون عملية الاقتراع هذه طويلة جداً، ولو أخذت الأصوات في أيام مختلفة، فإن الطلب على العاملين ووسائل النقل سيُضاعف.[٢]

إن الانتخابات مهددة منذ الآن بسبب فشل المؤتمر الوطني في توفير حريتي التجمع والحركة الضروريتين لعملية انتخابية، و[مهددة] على الخصوص بالعنف والنزوح في

١ [جريدة] الصحافة (الخرطوم)، 13 و 19 ديسمبر 2000؛

ولمعلومات عن صناديق الاقتراع عند مناسبات العزاء، انظر المقابلة الشخصية:

Muhammed Sharif Fadul, Khartoum, 24 February 2009.

ولمعلومات عن الاتهامات الأعم عن سوء الممارسة خلال هذه الانتخابات انظر على سبيل المثال المقابلة الشخصية:

Ibrahim Moniem Mansour, Khartoum, 24 February 2009; Mohammed Ahmed Salim, Khartoum, 1 March 2009.

٢ أشارت اقتراعات تجريبية أقيمت مؤخرًا في جامعة الخرطوم أنّه يتطلب من الفرد الناخب 24 دقيقة للإدلاء بالأصوات الثمانية المطلوبة في الشمال، و 29 دقيقة للإدلاء بالاثني عشر المطلوبة في الجنوب.

دارفور.[١] إن الانتخابات مهددة كذلك بتبعات التعداد السكاني لعام 2009 الذي تم إجراؤه بسوء، والذي أريد به توفير بيانات لترسيم الدوائر الانتخابية وتوزيع المقاعد. يبدو أن ذلك أدى إلى تقليل معتبر من عدد سكان الجنوب،[٢] عبر توليفة من عدم الاستعداد اللوجيستي والسذاجة السياسية من قبل الحركة الشعبية لتحرير السودان. ورفضت حكومة جنوب السودان التعداد رسمياً، ورفضت معه توزيع الدوائر الانتخابية الذي بني على أساسه، أمّا أثر ذلك على الانتخابات فليس واضحاً حتى الآن.[٣] وبينما يوجد حماس ملموس في بعض أجزاء السودان على الأقل لفكرة أن عملية ما ستمكن الناس من اختيار قادتهم، يبدو أن الاستيعاب الشعبي للعمليات المحددة للاقتراع السري أكثر محدودية بكثير.[٤]

إن عملية التسجيل التي توشك على الاكتمال في وقت [كتابة هذه الورقة] (ديسمبر 2009) تقدم بعض التلميحات عمّا سيأتي. فقد كانت المعلومات الواردة من شمال السودان متضاربة، وفي الجنوب، ألمحت التقارير إلى بداية بطيئة ومشاكل لوجيستية متعددة.[٥] أتبعت هذه بإعلانات حكومية متكررة عن أهمية العملية (وهي رسالة عززت بعشرات اللواري [الشاحنات الضخمة] المعبأة بالجنود الذي تجولوا في المناطق الحضرية مهددين باعتقال كل من لم يسجل)، أُعلِنت إحصائيات تسجيل عالية لدرجة مفاجِئة، على الرغم من إبلاغ المراقبين عن [وجود] مشاكل لوجيستية مستمرة.[٦] ولكن يظل مدى دقة عملية التسجيل غير واضح حتى الآن.

منذ العام 1953 ظلت الانتخابات في السودان بشكل متكرر قاصرة عن بلوغ الحالة المثلى للعمليات الانتخابية بوصفها لحظة للمشاركة القومية المشتركة، التي تُعلم المواطنة المسؤولة وتظهر عدم انحياز الدولة ودورها التنظيمي. أكدت كل من انتخابات الأنظمة التعددية وانتخابات الأنظمة السلطوية الطبيعة التفاضلية [التمييزية] للمواطنة في دولة يستقر فيها خيال عن [وجود] انتظام بيروقراطي فوق واقع يتكون من شبكات متعددة من علاقات القربى، والتشابه الثقافي، والولاءات القبلية والدينية، حيث عانى المسؤولون في تغطية الهوة بين هذه الحالة المتخيلة من الكفاءة المنظمة والواقع المتمثل في الانحراف المستمر وغير اللائق عن العملية. عندما تأتي الانتخابات فإن الحال عادة ما يكون وبشكل محبط كذلك، وبشكل منفصل عن محاولات الغش المباشر –ومشاكل التهديد، والمراقبة، والضوابط على الحركة والاستخدام السيء لموارد الحكومة– ستشهد الانتخابات إخفاقات متعددة في الإجراء، مدفوعة بنقص في وسائل التنقل والعاملين والمواد. تجربة العديد من الناخبين ستكون مجدداً تجربة من الحيرة وعدم التأكد والاعتماد على الوسطاء- أو ببساطة أكثر من ذلك.. من الإقصاء.

١ Adam O'Brien, 'Sudan's election paradox', <www.enoughproject.org> Qune (2009).

٢ Martina Santschi, 'Counting "New Sudan"', African Affairs 107, 429 (2008), pp. 63 1-40.

٣ South Sudan government rejects census results', Sudan Tribune website,' (<http://www. sudantribune.com/spip.php?article31710> (5 July 2009).

٤ T. Cook, with D. Vexler, Imagining Elections: A look at what citizens know and expect of Sudan's 2010 vote (National Democratic Institute for International Affairs, Washington, DC, 2009), pp. 6-7.

٥ انظر على سبيل المثال التصريح الذي أطلقه مركز كارتر بتاريخ 2 نوفمبر 2009:

Carter Center concerned about voter registration process and obstacles to observer accreditation'; also 'Sudan's Upper Nile state grants employees time off for voter registration', Sudan Tribune website, <http://www.sudantribune.com/spip.phpParticle33070> (10 November 2009); 'Voter registration delayed in Jonglei's Pigi', Sudan Tribune website, <http://www.sudantribune.com/ spip.php?article33076> (11 November 2009).

٦ Carter Centre praises peaceful voter registration despite concerns', Sudan' Tribune website, <http://www.sudantribune.com/spip.phpParticle33301> (1 December 2009); 'South Sudan leads voter registration', Sudan Tribune website, (<http://www.sudantribune.com/spip. php?article33400> (9 December 2009.

"الأراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن إدارة مركز تأسيس للدراسات والنشر"